الفصل الخامس

نبذة تاريخية عن المسرح..

ومسرح الطفل

المسرح الفرعونى:

يرى **"محمود الحفنى"** أن وادى النيل كان أقدم الأقاليم الآهلة بالسكان بفضل ما امتاز به من اعتدال مناخ، وخصوبة أرض، فإنه ليس بعجيب أن نرى فيه بداية القصة ثم تطورها من الحكاية إلى المحاكاة، فكانت بداية المسرح فى منظر مواكب الآلهة والتعبير عن أساطيرها فى التمثيليات المختلفة التى كانت مهرجاناتها تقام سنويًا فى تلك العهود القديمة.. وتعتبر تمثيلية إيزيس وأوزوريس أقدم المسرحيات فى تاريخ العالم إطلاقًا.

ويصدر **"أحمد شوقى"** حكما قاطعا بأن المسرح الفرعونى هو الرائد الأول للمسرح العالمى، وأنه نشأ بمصر الفرعونية قبل المسرح الإغريقى بثلاثة آلاف عام، وتتضح حقيقة ذلك من خلال النقوش الفرعونية على الآثار والتى تظهر اشتراك الفرعون والكهنة والأمراء والشعب فى تمثيلها داخل المعابد، وفى ساحاتها، وعلى شاطئ النيل.

وقد أخذت هذه المسرحيات كافة - التى كتب بعضها شعرًا وبعضها نثرًا، وجمع بعضها بين الشعر والنثر - عن المواد الأسطورية، بمعنى أن أبطالها كانوا من الآلهة، غير أن الاتجاهات المختلفة قد وجدت فى هذا المجال المشترك منطلقًا فسيحًا. فبينما كان بعض كتاب المسرح لا يخشون إثارة مناقشات وتأملات نظرية عميقة فى مسائل الدين العليا كما فى خاتمة "معركة تحوتى ضد أبو فيس"، فقد رأينا آخرين - من خلال تعليقات علماء الآثار - يستوحون من المأثورات الشعبية فى إسراف كثير. ومع ذلك لم يتورع هؤلاء ولا أولئك عن تجديد الأساطير، بل لقد ذهبوا إلى حد

تخيل أساطير جديدة، مثل أسطورة "عودة سيث" التى تنطوى على شىء من التناقض مع التعاليم الرسمية.

يخلص من ذلك **شفيق مجلى** إلى أن لمسرحنا المصرى إذن جذور تمتد إلى فجر التاريخ، وتثبت أننا عرفنا الفن المسرحى قبل أن يعرفه الإغريق، وأن الحضارة المصرية القديمة هى أيضًا منبع الدراما.

ومن ناحية أخرى، هناك بعض النقاد ومؤرخى الأدب الذين تناولوا وما زالوا يتناولون موضوع المسرح الفرعونى فى حرص شديد. ويرفضون التأكيد بوجود فن عند الفراعنة يطلق عليه فن المسرح.

المسرح اليونانى:

نشأة الدراما الإغريقية مرتبطة تمامًا بتلك الأناشيد والرقصات الجماعية التى كانت إحياء لطقوس فيها عبادة الإله "ديونيسوس" إله الخصب والمرح والخمر، والتى لم تكن تعرض إلا فى أعياد هذا الإله. وعندما كتب الشاعر "هوميروس" ملحمتى "الإلياذة" و"الأوديسا" أصبحتا منهلًا عذبًا للمسرح اليونانى.

ولقد وصلت الدراما إلى صورتها المتكاملة عند اليونانيين القدماء. ومن خلال مشاهدة أرسطو لأعمال الكتاب العظام الذين عاصرهم كتب كتابه "فن الشعر" الذى صار بمثابة قوانين للدراما على مر العصور رغم الجدل والنقاش حولها، فكتاب "فن الشعر" يمثل حجر زاوية لا يمكن إهماله. سواء فيما جاء به من نظريات أو قواعد حتى إن أهملها أو أخذ بها أحيانًا أدباء ومفكروا العصر الحديث.

هذا ومن المرجح أن الأطفال اليونانين قد شاركوا الكبار فى المواكب الدينية التى كانت تحمل طابعًا دراميًّا، كما شاهدوا مسرحيات كثيرة، ولكن جميع هذه المسرحيات كانت للكبار ولا يفهم منها الصغار إلا بقدر ما تسمح به قدراتهم العقلية المحدودة.

المسرح الرومانى:

أثرت الدراما اليونانية تأثيرًا كبيرًا فى الرومان دفعهم إلى ترجمتها وتقليدها ثم أخذوا يدرجونها شيئًا فشيئًا تحت السماء الرومانية حتى صارت فنًّا رومانيًّا مميزًا لا بالنص وحده وإنما بالآداء أيضًا، إذ احترف الأرقاء والمنبوذون الأداء التمثيلى واشتركت النساء فى الأداء الراقص. لهذا يعد المسرح الرومانى أول من نأى عن المجال الدينى بعد أن بدأ فيه، ثم اتجه إلى مجال المرح والترفيه والاستمتاع.

وكان الرومانيون كغيرهم يقيمون مهرجانات دينية ذات صبغة درامية يشترك فيها أبناء الشعب. ولكن المسرحيات التى كانت تعرض على المسارح الضخمة خلال الخمسمائة سنة الأولى بعد الميلاد انحدرت إلى استعراضات غير لائقة. ورغم أن الرومان كانوا يصحبون أطفالهم لمشاهدتها إلا أنها كانت مما لا يصح عرضه عليهم.

المسيحية والمسرح الأوربى:

هاجمت المسيحية عروض المسرح الرومانى التى انحدر مستواها الفنى والأخلاقى كنتيجة حتمية للانحلال السلوكى فى المجتمع حتى استطاعت القضاء على المسرح قرونًا عديدة.

ومن القرن السادس وحتى القرن الحادى عشر، لم يقم مسرح بالمعنى المعروف، وكان المشعوذون، والراقصون، والمغنون، والبهلوانات، وأشباههم يتولون عملية الترفيه الوحيدة التى اتسمت بطابع درامى. وكان الأطفال ضمن من يشاهدون هذه الألوان الفكاهية المتنقلة فى الخلاء، تمامًا كما كانوا فيما بعد ضمن الجمهور الضاحك على عروض الأراجوز.

وفى القرن الحادى عشر ظهر نوع جديد من الترفيه، إنه المنشد الذى يؤلف الأغانى ويلحنها وينشدها بمصاحبة إحدى الآلات الموسيقية، ومع أنه كان

يستهوى الكبار والصغار على السواء، إلا أنه كان من النادر أن يلتزم بتمثيل شخصيات محددة مما جعله لا يدخل فى عداد طبقة المشتغلين بالمسرح. وفى الوقت نفسه فقد احتضنت المسيحية المسرح بعد أن أخضعته لتعاليمها وقدمت المسرحيات الشعبية فى الاحتفالات بعيد القيامة وعيد الربيع وعيد الميلاد. وفى إنجلترا أصبحت رقصة السيف أكثر الرقصات شيوعًا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهى رقصة تعبيرية يصور فيها الراقصون أبطالًا من الشعب ومن الأساطير، كما يؤدى المهرجون فيها بعض الحركات المضحكة.

وبعدما أضيف الحوار إلى رقصة السيف فقد أصبحت عند ذلك التطور مسرحية شعبية نابضة، وكانت تعرض فى الريف ويقوم الفلاحون فيها بالتمثيل. أما جمهور المشاهدين فكان يتألف من مالك الأرض أو العمدة وأفراد أسرته وأصدقائه، وقد انتشر هذا اللون الدرامى وتميز بالبساطة، وكان يستهوى الأطفال والشباب.

وإلى جانب الدراما الشعبية، ظهرت الدراما الدينية أو مسرحيات الخوارق والموعظة. وهذه المسرحيات ازدهرت فى الكنيسة المسيحية، ونبعت من الدروس الدينية ذات التركيب الدرامى، وساد أوربا، بعد ذلك، حماس بالغ لاستلهام الماضى، فإذا بمسرحيات المؤلفين القدامى تعود إلى الظهور، وبدأت المسرحيات الدينية تختفى ليظهر مكانها المسرحيات التى تعالج الحياة والواقع. وفى بريطانيا فى القرن السادس عشر اهتم القصر الملكى بالتمثيل وأقيمت حفلات تمثيلية قدمت مسرحيات فيها الكثير من مظاهر الخشونة والقسوة. وكان نظار المدارس يقومون بتأليف مسرحيات لتلاميذهم، ثم بدأ كبار الكتاب يؤلفون مسرحيات لفرق التمثيل.

المسرح العربى:

يؤكد **"عقلة عرسان"** أن لدى العرب ظاهرة مسرحية كما لدى الشعوب الأخرى، لكنها لم تتطور كما حدث لبدايات ظاهرة المسرح فى اليونان التى شكلت

بعد تطورها المسرحية اليونانية من تراجيديا وكوميديا، وأصبحت الآن الشكل الدرامى العالمى. دائمًا وقفت عند حد، شأنها فى ذلك شأن الظاهرة المسرحية فى مصر الفرعونية، والهند، واليابان، والصين، بل ربما تقدمت عن تلك فى بعض الأشكال، والتاريخ يتناول بالتحليل ظواهر مسرحية وشواهد ومشاهد ابتداء من العصر الجاهلى كالرقص فى الطقوس الدينية والدنيوية والحكايات والقصص، والنياحة، والمرويات التراثية والمقامات، وحلقات الذكر الصوفية، والاحتفالات الجماهيرية المتنوعة.

وكما برز العرب فى كثير من جوانب الحضارة الإنسانية منذ فجر الإسلام، وأسهموا فى مختلف الفنون والآداب، فهناك دلائل تشير إلى أنهم عرفوا القصة والرواية وأعمالًا درامية خالصة فى رسائل ابن شهيد، والمعرى، ومقامات بديع الزمان والحريرى، وأن لهم فى مجال المسرح آثارًا عديدة، ومن أشهرها القصص الدرامية فى أعمال ابن حزم، وابن عبد ربه، وكتب الجاحظ، ونوادر جحا.. فالأدب العربى زاخر بالقصص التمثيلية التى تدور على لسان الطير والحيوان تصلح لتحويلها إلى مسرح لما تحويه من أحداث درامية وحوار سهل.

ويرى بعض الباحثين أن بدايات المسرح العربى تمثلت فى مسرح الشارع، ومسرح خيال الظل والمسرح الشعبى.

وإذا كان جمهور الباحثين يرى أن العرب قدموا أعمالًا أدبية فائقة الجودة، كالشعر والأغانى، والقصة، والرواية، والمقامة، لكن فنونهم الدرامية هذه اختلفت فى بعض عناصرها مع المسرح اليونانى والرومانى، وتميزت بخصائص معينة أفرزتها العوامل الاجتماعية والدينية العينية الخاصة بهم، وهذا شىء لا يقلل من مكانتها بل على العكس أضفى عليها صفة الأصالة والتميز.

العصر الحديث وظهور مسرح الطفل:

إن مسرح الطفل إشكالية حديثة على الساحة العالمية، فلم يهتم بها إلا من عهد

قريب. وقد أصبحت الدول المتقدمة تهتم به اهتمامًا كبيرًا إيمانًا منها بقيمته فى تشكيل بعدها الحضارى على المدى البعيد فللمسرح قوة وقدرة كأداة فعل وعمل وتطوير، وتغيير. تغيير العالم الداخلى للإنسان، وتغيير العالم الخارجى أيضا، تغيير تسانده بيئة صالحة لحياة أفضل وأجمل.

وكذلك فإن "**مارك توين**" يعتبر مسرح الأطفال من أعظم الاختراعات فى القرن العشرين.

هذا ويشير "**عبد التواب يوسف**" إلى أن كل البلدان المتحضرة تتنافس على ابتكار ألوان من هذا المسرح جذبًا للأطفال: تثقيفًا وتربية وتعليمًا.. وصولاً إلى مسرح الشارع للطفل، وقد نجح مخرج أمريكى فى تكوين فرقة مسرحية من ثلاثة عشر من الأحداث الجانحين، ونجح من خلال فرقته إلى علاجهم، وانطلق بهم يتجول ليقيم بهم عروضًا مبهرة. وفى إنجلترا توجد فرق مسرحية تعليمية تعينها أجهزة التربية من جانب، والمجلس الثقافى البريطانى من جانب آخر لتقدم يوما مسرحيًا تعليميًا فى مسارح البلديات.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية أنشئ أول مسرح للأطفال عام ١٩٠٣م وكان مسرحًا تعليميًا، يشرف عليه الاتحاد التعليمى فى نيويورك ولكن هذا المسرح لم يستمر غير بضع سنوات. وأنشأت بعد ذلك مؤسسات وجمعيات مختلفة مسارح للأطفال.

ولا مجال هنا لتتبع نشأة مسارح الطفل فى كثير من بلاد الغرب والشرق المتقدم.

أما فى مصر:

فقد كانت بدايات المسرح المدرسى على يد عبد الله النديم عام (١٨٧٩م) عندما أنشأ هذا المسرح فى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية، وكان يقوم بتأليف مسرحيات هدفها نقد بعض العيوب القائمة فى المجتمع من قبيل مسرحيات ينتقد

فيها الجهل.. ثم جاء محمـــود مراد أحد مدرسى التاريـــخ بالمدرسة الخديوية ليقيم بها مسرحًا وليكـــون ذلك هو أول مسرح مدرسى بالمدارس الأميرية وذلك فى عام (١٩٢٢).

ثم برز بعد ذلك الدور المهم لإسماعيل القبانى حيث قام عام (١٩٣٢م) بتأسيس المدارس النموذجية التجريبية لتصبح المكانة البارزة فيها للمناهج الخاصة بالتربية الرياضية والأشغال اليدوية والرسم والموسيقى والقصص والتمثيل والسينما.

وفى عام (١٩٣٦م) قام زكى طليمات بتقديم مذكرة إلى وزارة المعارف العمومية بشأن الفرق التمثيلية بالمدارس الثانوية وأرفق مع المذكرة الخطة اللازمة لذلك وتمت الموافقة عليها فى ذات العام.

ثم أنشئ فى مصر أول مسرح متخصص للطفل خارج المدرسة عام ١٩٦٤م. وإذا أردنا أن نعدد أمثاله فى البلاد العربية فإننا نجدها قليلة. وقد نجد بعض المسرحيات التى تقدم للأطفال فى معظم البلاد العربية إلا أن عددها بصفة عامة قليل، ولا تقدم بشكل منتظم، وغالبًا ما تقدم لأطفال المدن الكبيرة والعواصم فقط.